الاستشراف في السنة النبوية
ضوابطه واخلاقياته

م .م. فيصل غازي جاسم
كلية الامام الاعظم الجامعة

تمهيد...

الحمد لله الكبير المتعال والصلاة والسلام على اشرف خلقه محمد صاحب فصل المقال وعلى خيرة قومه من الصحابة والال وبعد: فإن السنة النبوية المطهرة التي تعد المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، وأساس نهضتنا، وعماد معرفتنا، قد ندبت إلى استشراف المستقبل، ورغبت في التخطيط المستقبلي، وكان لنظرة النبي المستقبلية وإعداده العدة لكثير من الأحداث أثر كبير في تطور الدولة الإسلامية، واستكمال نظمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فانتشر الإسلام، واتسعت رقعته الجغرافية، ولم يكن ازدهار الحضارة الإسلامية والنهضة العلمية والتطور العمراني الذي شهده العالم الإسلامي خلال العصور الذهبية إلا أثراً لاستشراف المستقبل في العهد النبوي، وثمرة من ثمرات العناية المتوازنة بحاضر الأمة ومستقبلها، وفي الأحاديث النبوية ما يبين أثر استكشاف المستقبل في صنع القرار، وتطوير مجالات الحياة المختلفة.

باتت العناية بالاستشراف او التخطيط المستقبلي من الامور المفروغ من فائدتها للامة، فهي تعد الان من البديهيات في ظل المعطيات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الحاضرة أن دراسة المستقبل تعزز كفاءة المؤسسات المعنية بعملية التنمية، وإدارة الأزمات، وتطوير الموارد البشرية والطبيعية، ومن أجل ذلك فقد عملت الدول المتقدمة على تلمس احتمالات مستقبلها، وترتيب أولوياته، ورسم صورته، منطلقة من الاعتبار بالماضي، وتحليل الحاضر، ومعرفة سنن التغيير.

ان الاعتناء بالدراسات المستقبلية يضع امتنا الاسلامية امام تحدي كبير، فنحن نعيش في عصر تعددت فيه مناهج استشراف المستقبل، وكثرت مراكزه ودراساته، وتداعت الأمم للعناية به. ولا تتمثل هذه التحديات في بيان منهج الإسلام في العناية بالمستقبل

وضبط وسائل دراسته، وتأصيل ذلك في القرآن الكريم والسنة النبوية فحسب، بل في زيادة الوعي بأهميته، وتطبيقه في حياتنا العملية، وتحديد موقعه في التنشئة الاجتماعية، والمناهج التعليمية، والنظم الإدارية .

بعد ان تبين شرعية الاستشراف في الكتاب والسنة اصبح لزاما على الامة الاخذ بالفكرة والعمل الجاد على تأصيلها في المجتمع. «اذن فمما ينبغي التاكيد عليه هنا ان التخطيط والتطلع للمستقبل ليس رجما بالغيب او تعلقا بالظنون والتخرصات واشتغالا بالخزعبلات انما هوتوضيف لمعطيات الماضي المدروس والحاظر الملموس ومسببا لتوقع نتائجها ولوازمها .ومن ثم رسم خطط العمل وتنظيمها بناء على ذلك».[1]

وللامام ابن القيم قولا بديعا في تأصيل الاستشراف وبيان اهميته حيث يقول «وليس التخطيط والاستشراف للمستقبل من قبيل التمرد والانكار للقدر ،اوهو من قبيل مغالبة الاقدار بالاقدار (كما يقال) نفرمن قدر الله الى قدرالله»[2]

❊ ❊ ❊

(١) من مقالة للدكتور احمد الصويان على شبكة الانترنت موقع المختار الاسلامي
(٢) انظر مدارج السالكين ج١/ ص١٩٩

المبحث الأول
بيان مصطلح الاستشراف

الاستشراف لغة: مأخوذ من الفعل الثلاثي(شرف) والشين والراء والفاء أصل يدل على علو وارتفاع. فالشرف: العلو. والشريف: الرجل العالي. ويقال استشرفت الشيء، إذا رفعت بصرك تنظر إليه. والمشرف: المكان تشرف عليه وتعلوه. ومشارف الأرض: أعاليها.واشتقاقه من الشرفة التي تشرف بها القصور، والجمع شُرف»[1].

وفي «لسان العرب»: «تشرف الشيء واستشرفه: وضع يده على حاجبه كالذي يستظل من الشمس حتى يبصره ويستبينه، واسْتَشْرَفْتُ الشيء: إذا رفعت بصرك إليه وبسطت كفك فوق حاجبك كالذي يستظل من الشمس، وعن النبي ﷺ: (سَتَكُونُ فِتَنٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْقَائِمِ وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْمَاشِي وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنْ السَّاعِي مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ فَمَنْ وَجَدَ مِنْهَا مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ)[2].

وأصله من الشرف العلو، كأنه ينظر إلى موضع مرتفع فيكون أكثر لإدراكه»[3].

«واستشرف فلان: رفع رأسه ينظر إلي شيء»[4].

---

(١) أحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد، دار الجليل، ط١، بيروت، ١٩٩٠م، ج٣، ص١٠٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب: تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، ج٢١، ص٤٧٣، حديث رقم (٣٣٣٤). صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب: نزول الفتن كمواقع القطر، ج١٤، ص٥٨، حديث رقم (٥١٣٦).

(٣) محمد بن منظور (ت ٧١١)، لسان العرب، دار صادر، ط١، بيروت، مج٩، ج٢، ص١٦٩.

(٤) الخليل بن أحمد الفراهيدي، (ت ١٧٠)، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، دار مكتبة الهلال

"والاشتراف: الانتصاب، واستشرفت الشيء إذا رفعت بصرك تنظر إليه وبسطت كفك فوق حاجبك كالذي يستظل من الشمس» [1].

ويقول الثعالبي: اِذَا نَظَرَ إِنْسانٌ الى قَوْم فِي الشَّمْسِ فألصَقَ حَرْفَ كَفِّه بِجَبْهَتِه فَهُوَ الاسِتكْفَافُ،فَإِنْ زَادَ فِي رَفْعِ كَفِّهِ عَنِ الْجَبْهَةِ فَهُوَ الاسْتِشفْافُ ،فإِنْ كَانَ أَرْفَعَ مِن ذَلِكَ قَلِيلا فَهُوَ الاسْتِشْرَافُ [2].

ويعرف ابن الجزري الاستشراف فيقول: الاستشراف: هو أن تضع يدك على حاجبك كالذي يستظل من الشمس حتى يستبين الشيء. والمعنى في الحديث: أمرنا أن نختبر العين والأذن فنتأمل سلامتهما من آفة تكون بهما[3]

وبالجملة فانه يمكننا ان نلخص معنى الاستشراف عند اهل اللغة بما لخصته الموسوعة الفقهية الكويتية حيث جاء فيها ((الاِسْتِشْرَافُ فِي اللُّغَةِ: وَضْعُ الْيَدِ عَلَى الْحَاجِبِ لِلنَّظَرِ، كَالَّذِي يَسْتَظِل مِنَ الشَّمْسِ حَتَّى يَسْتَبِينَ الشَّيْءَ . وَأَصْلُهُ مِنَ الشَّرَفِ: الْعُلُوُّ، وَأَشْرَفْتُ عَلَيْهِ بِالأَْلِفِ: اطَّلَعْتُ عَلَيْهِ.

وَيَسْتَعْمِلُهُ الْفُقَهَاءُ بِمَعْنَى: التَّطَلُّعِ إِلَى الشَّيْءِ، كَمَا فِي اسْتِشْرَافِ الأُْضْحِيَّةِ . وَهُوَ فِي الأَْمْوَالِ بِأَنْ يَقُول: سَيَبْعَثُ إِلَيَّ فُلاَنٌ، أَوْ لَعَلَّهُ يَبْعَثُ، وَإِنْ لَمْ يَسْأَل .

وَقَال أَحْمَدُ: الاِسْتِشْرَافُ بِالْقَلْبِ وَإِنْ لَمْ يَتَعَرَّضْ، قِيل لَهُ: إِنَّ هَذَا شَدِيدٌ، قَال: وَإِنْ كَانَ

بيروت، م٢، ص٤.

(١) إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح في اللغة، نسخة دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٥٦م، ج١، ص٣٥٤.

(٢) فقه اللغة وسرُّ العربية لأبي منصور الثعالبي الفصل الثامن الجزء الاول ص ٦٧٨ط٣

(٣) ج٣ ص ٣٢١جامع الأصول في أحاديث الرسول لمجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)تحقيق: عبد القادر الأرنؤوطمكتبة الحلواني – مطبعة الملاح – مكتبة دار البيان١٩٧٠.

شَدِيدًا فَهُوَ هَكَذَا، قِيل لَهُ: فَإِنْ كَانَ الرَّجُل لَمْ يَوَدَّ فِي أَنْ يُرْسِل إِلَيَّ شَيْئًا، إِلاَّ أَنَّهُ قَدْ عَرَضَ بِقَلْبِي، فَقُلْتُ: عَسَى أَنْ يَبْعَثَ إِلَيَّ، قَال: هَذَا إِشْرَافٌ[1].

اما في اصطلاح العلماء: فلقد وجدناهم يبينون المعنى الاجمالي لمعنى الاستشراف بلا خوض في جزئياته فقال أبن الملك الاستشراف الاستكشاف قال الطيبي وقيل هو من الشرفة وهي خيار المال أي أمرنا أن نتخيرهما أي نختار ذات العين والأذن الكاملتين[2]

والاستِشْرافِ إمّا على حقيقته أَو كناية عن الرجل صاحب التأَنِّي والتَفكُّرِ والناظرِ عواقِب الأُمورِ[3].

ذلك أن علم الاستشراف يقوم على منهجيات تعتمد أمورا منها: وضع المشاهد المستقبلية (السيناريوهات) في ضوء أنماط المشاهد الماضية، وبتعبير آخر: الإفادة من التجارب الناجحة في الماضي في وضع الاستراتيجيات للمستقبل.[4] وعرفه بعضهم بأنه: الوقوف على ربوة عالية لاستطلاع افاق المستقبل المنظور كل بحسب مايسمح به ملء بصيرته فالجهد الاستشرافي المستقبلي هو نوع من الحس التاريخي المستند الى قاعدة علمية[5]

ولا يختلف الاستشراف في معناه الذي نقصده في هذه الدراسة عن تلك المعاني اللغوية بل إنه يدور في إطارها وينطلق منها فهو: استطلاع مبكر للمستقبل في ضوء معطيات

(١) نهاية ابن الأثير، والمصباح المنير، والصحاح مادة: (شرف) . البحر الرائق ٨ / ٢٠١ ط العلمية، ومغني ابن قدامة ٨ / ٦٢٥ ط الثالثة . نقلا عن الموسوعة الفقهية الكويتية ج٣ص ٣١٨.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي المؤلف: محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلاالناشر: ج٥ص ٦٩ دار الكتب العلمية – بيروت.

(٣) العروس من جواهر القاموس المؤلف: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني ،أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي ج١ص٢٩٢تحقيق مجموعة من المحققين الناشر دار الهداية.

(٤) انظر: مدخل إلى التنمية المتكاملة د. عبد الكريم بكار ص ١٥٥ .

(٥) مستقبليات التعليم نقلا عن مجلة عالم الفكر ١٠٠٥/ ١٨ سنة ١٩٨٨.

الحاضر والتحديات المستقبلية التي تفرضها طبيعـة النمو والتحول والتطور والطموح. وهو إلقاء نظـرة فاحصة على المستقبل بمنظار تتكون عدساته من عبـق تجارب الماضي ونتائج وثمرات الحاضر ومؤشرات التطلع المستقبلي. إنـه عمليات علمية أساسها التخطيط وتستهدف حشـد الطاقات وتوفير الإمكانات اللازمة وترشيد استخدامها لمواجهة أعباء المستقبل وتحقيق الغايات المرجوة والمتوقعة فيه)[1].

❊ ❊ ❊

(١) السنن الالهية في القران الكريم لعماد عبد الكريم خصاونة بحث في مجلة المنارة العدد الثاني المجلد ١٥لسنة ٢٠٠٩.

المبحث الثاني
اثر السنة النبوية في مفهوم الاستشراف

إن الاستشراف (الرؤية المستقبلية) ليست جديدة ولا بعيدة عن الإسلام، بل هي جزء من جوهر هذا الدين، الذي يمثل المستقبل لجميع الأديان الماضية، إذ كانت كلها تمهد له، وتبشر بقدومه، حتى بزغ فجره، وسطعت شمسه، لاجل هذا نجد ان الدين الاسلامي يحث وفي مواطن كثيرة من القران الكريم ومن سنة المصطفى الكريم على استشراف المستقبل وامعان النظر في الامور المستقبلية ليمكننا من وضع الخطوط العريضة لمستقبل الامة وفق المنهج القراني والذي اسس منهجه الرسول الكريم. فإن السنة النبوية المطهرة التي تعد المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، وأساس نهضتنا، وعماد معرفتنا، قد ندبت إلى استشراف المستقبل، ورغبت في التخطيط المستقبلي، وكان لنظرة النبي المستقبلية وإعداده العدة لكثير من الأحداث أثر كبير في تطور الدولة الإسلامية، واستكمال نظمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فانتشر الإسلام، واتسعت رقعته الجغرافية، ولم يكن ازدهار الحضارة الإسلامية والنهضة العلمية والتطور العمراني الذي شهده العالم الإسلامي خلال العصور الذهبية إلا أثراً لاستشراف المستقبل في العهد النبوي، وثمرة من ثمرات العناية المتوازنة بحاضر الأمة ومستقبلها، وفي الأحاديث النبوية ما يبين أثر استكشاف المستقبل في صنع القرار، وتطوير مجالات الحياة المختلفة.

ينطلق مفهوم الاستشراف في السنة النبوية من نظرتها إلى المدى الزمني لحياة الإنسان، ولما كانت الحياة الدنيا ليست نهاية المطاف بالنسبة لرحلة الإنسان إلى الله – كما هو التصور

المادي لها – كانت نظرة السنة إلى المستقبل تمتد إلى ما بعد الحياة الأولى ؛ حيث يواجه الإنسان مستقبلاً آخر لا نهاية له ولا حدود، وهذا أمر تفتقده كل النظم الحديثة التي تتسم نظرتها إلى المستقبل بالمحدودية بناء على عملية الفصل بين الحياتين الأولى والآخرة.

لقد كان نظر النبي ﷺ يتجه دائماً نحو المستقبل، ولم يكن ينظر إلى الماضي أو الحاضر إلا بقدر ما يفيده في سعيه نحو المستقبل، ويرجع اهتمام النبي ﷺ بالمستقبل إلى أنه الوعاء الزمني لمنجزات الإنسان وأعماله المرجوة.والمتأمل في أدعية النبي ﷺ وأذكاره يشعر فيها بظلال الأمل الفسيح في رحمة الله وكرمه أن يهيئ له مستقبلاً خالياً من العوائق والمنغصات ليتمكن من تحقيق آماله في تبليغ الرسالة وأداء الأمانة على الوجه الذي يرضى ربه سبحانه.

فمن الامور الجليلة للدراسات المستقبلة انها تعزز كفاءة المؤسسات المعنية بعملية التنمية، وإدارة الأزمات، وتطوير الموارد البشرية والطبيعية، ومن أجل ذلك فقد عملت الدول المتقدمة على تلمس احتمالات مستقبلها، وترتيب أولوياته، ورسم صورته، منطلقة من الاعتبار بالماضي، وتحليل الحاضر، ومعرفة سنن التغيير، وإعمال الفكر لمعرفة الممكن، والمحتمل، والمفضل.

وهذا الواقع يطرح تحديات فكرية متعددة أمام أمتنا الإسلامية، فنحن نعيش في عصر تعددت فيه مناهج استشراف المستقبل، وكثرت مراكزه ودراساته، وتداعت الأمم للعناية به. ولا تتمثل هذه التحديات في بيان منهج الإسلام في العناية بالمستقبل وضبط وسائل دراسته، وتأصيل ذلك في القرآن الكريم والسنة النبوية فحسب، بل في زيادة الوعي بأهميته، وتطبيقه في حياتنا العملية، وتحديد موقعه في التنشئة الاجتماعية، والمناهج التعليمية، والنظم الإدارية .

ولم يبرح تفكير كثير من المسلمين اليوم وهمومه يدور في المحاولة لمواكبة العصر، وهذا من أسباب القصور الواقع. لأن المفروض على جيل الصحوة أن يفكر في صياغة المستقبل ومسابقة العصر ليس فقط مواكبته ومسايرته. بل نسبقه برؤية واضحة ونصوغ المستقبل بخطة محكمة. وليس هذا معارضة للأقدار ولا إنكارا لمبدأ الإيمان بالقدر والتسليم له، لأن إيماننا بالقدر لا يدعونا إلى التقاعس عن العبادة وعمل الخير، بل هو كما قال عبد القادر الجيلاني رحمه الله: «ننازع أقدار الحق بالحق للحق»[1]، فحين نطالب بالتسليم بالأقدار المحتومة لا يعني ذلك ركودا واستسلاما أمام مغيبات مستقبلية، وهو كما قال عمر الفاروق[2] رضي الله عنه: «نفر من قدر الله إلى قدر الله»[3]. إنما هي عملية إيجابية مع الإيمان بعلم الله السابق وقدرة الله الشاملة .

❊ ❊ ❊

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٤٥٨) .
(٢) (شذرات الذهب ١/ ٣٣)
(٣) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٨٩٥ رقم ١٥٨٧) .

المبحث الثالث
اهمية الاستشراف النبوي
وأثره في واقع الأمة

مما يؤكد قيمة المستقبل في حياة الرسول ﷺ ودعوته اصحابه رضي الله عنهم إلى استشراف المستقبل والتخطيط له تارة بالأسلوب المباشر، وأخرى عن طريق ضرب المثل وحكاية القصة. إن هذا الأسلوب في التخطيط الذي يتسم ببعد النظر وعمق الفكر يحتاج إليه المعلم في إدارة التعليم، ورجل الاقتصاد في السوق، والمفاوض وفي كل مفردات الحياة. فليس من شك أن الإلحاح المستمر في أي أمر قد يؤدي إلى نتائج عكسية، ومن هنا فإن الحكمة التخطيطية تقتضي مراعاة الأوقات المناسبة لتنفيذ الخطط وتحقيق الأهداف.

المصدر الثاني للتشريع (السنة النبوية) فحواها بالجملة دعوة إلى المستقبل، وذلك أنها جاءت بأوامر ونواه، ورتبت عليها جزاء عاجلاً أو آجلاً، فلفتت السنة النبوية بهذا الأنظار إلى ضرورة النظر للمستقبل والعمل له سواء أكان قريباً أم بعيداً، ومن ثم قيل: إن التشريعات العقابية قائمة على النظرة المستقبلية من حيث إنها تدابير واقية للمنع من الجريمة قبل وقوعها. بل إن حديث السنة النبوية عن أخبار الأمم الماضية، إنما هو في حقيقته من وسائل التخطيط للمستقبل عن طريق الاستفادة من تجارب تلك الأمم.

ان تسمية الاستشراف بالتخطيط للمستقبل هي الاعمق بمضمونه وسيلة وغاية ويراد به:حسب تقريرات العلماء في بيان المصطلح «التصور المستقبلي المبنى على الدراسة والتحليل والإحصائيات الثابتة للعمليات المستقبلية، ويتم عادة قبل العمل والتنفيذ».

ويمكن التعبير عنه بأنه[1] «محاولة التعرف على صورة المستقبل بناء على تصور سابق محفوف بالقرائن، ومقدمات تؤدي إلى نتائج معينة في الغالب». وهو بهذا المعنى يتفق مع منهج السنة النبوية.

من اجل هذا نجد أن دائرة التخطيط للمستقبل هي دائماً دائرة الممكنات، وهي الأمور التي تقع في مقدور البشر، وأما دوائر الواجبات والمستحيلات فلا يشملها التخطيط،وهذاالذي يؤكد عليه علماء الإسلام، وهو ما ينبغي أن يضعه المخططون في حسابهم نظراً لوجود قوانين إلهية تحكم المستقبل. ودائرة الممكن تشمل كل مناحي الحياة الدنيا التي يعيشها المسلم، بل تمتد إلى الحياة الأخرى لتشمل مصيره النهائي في ذلك اليوم، فإنه أيضاً داخل في دائرة الممكنات. على أن المستقبل أو الواجب إنما هو بالنسبة لما في علم الله لا علم البشر، فلا يعني كون الموت واجب الوقوع ألا يتعاطى الإنسان أسباب البقاء وحفظ الصحة، وقد تداوى النبي ﷺ وتخفف من ألم المرض، وأخذ بأسباب النجاة في الحرب، ورجع عمر رضي الله عنه عن أرض الطاعون ناجياً بنفسه ومن معه[2].

وفي ضوء الفهم المستنير لحقيقة التخطيط المستقبلي ومجالاته في ضوء السُنة ينطلق الإبداع العقلي في: استحداث مصادر جديدة للطاقة، والبحث عن أراض جديدة صالحة للحياة ولو كانت فوق سطح القمر أو في أعماق الأرض، واكتشاف أدوية جديدة للأمراض التي عجزت الأدوية القديمة عن علاجها.

والناظر في سيرة رسول الله ﷺ وسُنته العملية يدرك تمام الإدراك أنه لم يدع مجالاً من مجالات التخطيط المشروعة والممكنة إلا وسعى فيه، واستعان عليه بكل الوسائل

(١) انظر: مدخل إلى التنمية المتكاملة د. عبد الكريم بكار ص ٩٤

(٢) ينظر في ذلك السنن الالهية في القران الكريم لعماد عبد الكريم خصاونة بحث في مجلة المنارة العدد الثاني المجلد ١٥لسنة ٢٠٠٩

والأدوات المتاحة حتى ولو صدرت من عقول وتجارب غير مسلمة كأخذه بنظام حفر الخندق وهى وسيلة حربية مأخوذة عن الفرس، وكأخذه بنظام ختم الكتب والرسائل لما قيل له إن الملوك لا يقبلون الكتاب إلا مختوماً، وذلك حينما وجه رسله وكتبه إلى الملوك والأمراء في خطته لتوسيع رقعة الدولة الإسلامية عن طريق سفراء الدعوة. ويعد هذا من دلائل سعة التخطيط المستقبلي في الإسلام، حيث تتسم وسائل العمل للمستقبل بالمرونة وعدم التقيد بوسائل معينة مادام ذلك كله في إطـار القواعد الشرعيـة المرعية.

وأكدت السيرة العملية للرسول ﷺ أنه كان من أكثر الناس انفتاحاً على العالم من حوله ودراية بأحوال الأمم والشعوب. فاختياره لأرض الحبشة والطائف والمدينة للهجرة إليها مثلاً تعنى درايته الجيدة بأحوال الأمم من حوله وحسن دراسته للواقع وهو يخطط لمستقبل الإسلام، وعقده الأحلاف مع قبائل العرب في مواجهة معسكر الشرك، ورسله وبعثاته التعليمية والدبلوماسية إلى الملوك والأمراء في الداخل والخارج يؤكد مدى أهمية الانفتاح والمرونة وأثرها في نجاح عملية التخطيط.

لذلك حرص الصحابة الكرام رضي الله عنهم على أن يسألوا رسول الله ﷺ عن نوع الهدف الذي يسعى المسلم إلى تحصيله والتخطيط له،لأن المنافقين لم تكن لهم أهداف ولا تطلعات كبرى نبيلة فقد قعدوا خلاف رسول الله ﷺ، بينما غامر الصحابة بأنفسهم وأموالهم في سبيل الهدف الأسمى، والأمة الإسلامية الآن تفتقد تلك التطلعات والرؤى الكبيرة، لذا فهي تتخبط خبط عشواء في الوقت الذي تسعى فيه الأمم والشعوب الأخرى إلى تحقيق أهداف واضحة واحداً تلو الآخر.

ولا تعارض بين استئثار الله بعلم المستقبل وبين استشراف الإنسان لهذا المستقبل والتخطيط له بناءً على الظن الغالب المبني على القرائن، أو المعطيات المتاحة التي هي بمثابة المقدمات التي تؤدي إلى نتائج معلومة وقد تتخلف.

لأجل ذلك فالعمل للمستقبل أمر لا مانع منه شرعاً في حالتي القضاء الناجز والمعلق حيث إنه لا علم للإنسان بما سيكون من أمره، على أنه إما أن يتغير إذا كان مشروطاً في علم الله وهو المعلق، وإما أن يقع مصحوباً باللطف وهو المبرم، وعلى فرض خلوه من اللطف فحظ المسلم عند استقباله بصبر وثبات خير من الدنيا وما فيها.

والذي يتعمق في دراسة كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ يتبين له أنهما يرفضان الارتجال والعشوائية، وترك الأمور تجرى في أعنتها بغير ضابط ولا رابط ولا نظام، وقد بين الرسول ﷺ أن التوكل على الله لا يعنى اطراح الأسباب أو إغفال السنن التي أقام الله عليها نظام هذا الوجود.

إن تحديد الأهداف والغايات هو أول خطوات التخطيط السليم، فالذي ليست لديه أهداف واضحة لن يصل إلا إلى المجهول، ومن فوائد هذا التحديد أنه يحفز الإنسان نحو المزيد من الإنجاز.

إن مسيرة الدعوة والدولة الإسلامية كلها قامت على مبدأ ترتيب الأولويات، فنجد أن مبدأ الدعوة الإسلامية كان الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك، حتى إذا استوعب الناس أمور العقيدة كانت الدعوة إلى شرائع الإسلام،كما أنه رتب المدعوين أيضاً على هذا النحو: فبدأ بعشيرته الأقربين، ثم بالقوم جميعاً من العرب، ثم بغير العرب من جميع أنحاء العالم، وكذا بدأ بالدعوة السرية قبل الدعوة الجهرية.

وحينما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة رتب أولويات بناء الدولة على هذا النحو: بناء المسجد، المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، تنظيم العلاقة مع اليهود عن طريق عقد المواطنة، فبدأ بها قبل غيرها من الأعمال، كما أنه اتجه أولاً إلى تصفية الكيان السياسي للمشركين في الجبهة الداخلية، حتى إذا أتم هذه المرحلة اتجه إلى تصفية الكيانات السياسية الكبرى في الجبهة الخارجية، فكانت حروبه مع إمبراطوريتي فارس والروم،

وبهذا قامت الدعوة والدولة الإسلامية على أساس من مبدأ «ترتيب الأولويات».

إن حياة النبي ﷺ كانت كلها تخطيطا عملياً، ولم تكن مجرد أماني أو أحلام مجردة، فمثلاً نجد أنه حينما أراد أن يهاجر بحثاً عن أرض جديدة للدعوة وضع خطة عملية محكمة، ولم ينتظر أن يهبط عليه ملك من السماء يحمله على جناحه مع أنه أحق الناس بذلك.

كان الحذر والترقب إحدى سمات التخطيط عند النبي ﷺ، وكم هي كثيرة تلك المواقف التي كانت تدعوه للحذر، فكان يحتاط لها ويضعها في حسابه، ومن المتعذر إحصاء تلك المواقف، لأنها تشكل جزءاً من نسيج تخطيطه في حياته كلها.

❊ ❊ ❊

المبحث الرابع
ضوابط واخلاقيات استشراف المستقبل

ان الذي يميز المنهج الوضعي عن المنهج السماوي مصدرية المنهج فلما كان المنهج الذي وضع للاستشراف من لدن النبي محمد ﷺ كان الاستشراف مبنيا على اسس علمية ومنهجية واضحة ليست هي من قبيل التخرص ولا الكهانه ولا تتعارض مع روح الدين الاسلامي هدفها الرئيس هو الهدف الذي يدور علية بناء الدين كله «جلب المصالح ودرء المفاسد».

إن السُنة النبوية في إطلاقها العنان للطاقات الفكرية والإبداعية في التخطيط للمستقبل لم تترك هذا الإطلاق دون أن تقيده بضوابط وأخلاقيات تحميه من الانفلات والشطط، شأنه في ذلك شأن كل صلاحية تعطى للإنسان، حتى يكون هناك توازن بين ما يمكن فعله، وما ينبغي أن يكون.

الثابت من سيرته عليه الصلاة والسلام أنه رغم الأجواء التي كانت ملبدة بالغيوم من حوله إلا أنه كان متفائلاً بالمستقبل إلى أقصى حد، ولم تمنعه تلك الظروف الحوالك من السعي والتخطيط لمستقبل الإسلام والمسلمين، وأي مشهد من حياته ﷺ كاف لإدراك تلك الحقيقة، لقد رأيناه وقد حاصرته جيوش الأحزاب حول المدينة من فوقهم ومن أسفل منهم، وهو يشارك أصحابه في حفر الخندق، ثم هو يبشرهم بكنوز كسرى وقيصر! أي تفاؤل هذا الذي لا تشير إليه قرائن الأحوال ولا تدل عليه شواهد الأمور في ظاهر الأمر؟ إنه تفاؤل المسلم الواثق بربه مادام أنه يعمل له، ويجاهد في سبيله. إن المتشائم يعيش في ظلمات الإحباط واليأس، وليس لديه القدرة على رؤية شعاع النور في

أفق المستقبل، أما المتفائل فهو أكثر أملاً وعملاً، لأنه يسعى إلى هدف يراه رغم الحجب الكثيفة.

على المسلم ان يعلم يقينا انه بدون معونة الله ليس للتخيط المستقبلي او الاستشراف حظ من النجاح والتوفيق فليس الاستشراف وحده كافيا مالم يعظد بتوفيق الله ورعايته لانه وحده سبحانه وتعالى يقدر الامور قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[1]. ومن ضوابط التخطيط وأخلاقياته ألا يثق المسلم إلا بربه، ولا يثق بأسبابه مهما كانت قوتها، وأن يفوض أمر النتائج إلى الله بعد تمام أخذه بالأسباب، وهذا أمر ليس إلا للمسلم، فغيره يتعامل مع الأسباب كأنها آلهة خالقة، تفعل و تنفعل لها الأشياء والأحداث، ثم تكون النتائج كثيراً على عكس المتوقع.

ومما يجب التاكيد عليه هوان يجعل المسلم لدى تخطيطه اوأستشرافه للاحداث مبدأالعقيدة التي تصون للمسلم امره وتحميه من ان يقع في الموبقات او المحرمات . وهذه الشرعية هي التى تميز التخطيط المستقبلي عند المسلمين عن غيرهم. ومن الوسائل المنهي عنها شرعاً الظن المجرد عن القرائن واتباع العورات والتجسس وإتيان الكهنة والعرافين والمنجمين والخطاطين .... فكل هذه الوسائل وأشباهها ليست وسائل شرعية لاستشراف المستقبل والتخطيط له حيث إنها تتنافى مع العقيدة الإسلامية من جانب، كما تتنافى مع السلوك الإسلامي من جانب آخر، وقد حذرت السنة النبوية منها أشد التحذير.

ان من اهم ضوابط التخطيط هي كتمان السر لان افشاء اسرار التخطيط القيادي يعرض العملية للفشل. وإننا لنلمح في هديه ﷺ مدى حرصه على سرية الخطط وما

(١) سورة الرعدالاية ٨.

مرحلة الدعوة السرية للرسول الكريم الاخير دليل على كتمان اسرار العمل القيادي، وكان من هديه ﷺ أنه «إذا أَرَادَ غَزْوَةً ورَّى بِغَيْرِها» حرصاً منه على السرية والكتمان. وعدم الالتزام بهذا المبدأ يكشف لنا السر وراء إفشال كثير من المشاريع المستقبلية على المستوى الفردي والجماعي، بسبب تسريب الأنباء وعدم الالتزام بمبدأ الكتمان.

المخطط الجيد هو الذي يترقب الامور بصبر وعزيمة انتظارا للنتائج التي رسمت في التخطيط المسبق فالعجلة من الافات التي تنزل بصاحبها كوارث غير محسوبة .وها هي كتيبة الرماة في غزوة أحد حينما رأوا الجولة الأولى لأصحابهم من المسلمين في أول الأمر تعجلوا نتيجة المعركة فتركوا أماكنهم،وهموا بأخذ الغنائم، فتغيرت دفة الصراع وصارت الجولة للمشركين. ويكفي أن تعرف أن النبي ﷺ ظل في مكة ثلاث عشرة سنة ليخرج منها بنفر قليل ممن آمن معه دون أن يسعى إلى قلب نظام أو إحداث ثورة عسكرية في مغامرة غير محسوبة ولا متكافئة، قد تقضى على الأمة الإسلامية في مهدها.

فمن صفات الرسول العظيم التي جعلت منه قائدا ميدانيا يتعامل مع الواقع ومستشرفا عظيما لاوجود لنظيره انه كان ﷺ يحرص بصورة دائمة على العمل الجماعي، ويقوم بتوزيع أدواره على حسب الاستعدادات والمواهب الشخصية، ويتضح ذلك جلياً في خطة الهجرة، والعناصر التى تم اختيارها للقيام بالمهام التى كلفت بها على حسب طبيعتها ومواهبها.ومن قواعد العمل الجماعي: الشورى، وقد كانت ملاذ النبي ﷺ فيما لم ينزل عليه فيه وحى مع أنه أشد خلق الله ذكاء وعبقرية، ولو كان أحد يستغنى بعقله لكان أولى الناس بذلك رسول الله ﷺ. والعمل الجماعي لا يصلح إلا في ظل قيادة رشيدة تنظم العمل، وتوزع أدواره، وتحدد مهامه، يجتمع الكل حولها ويستجيب لتوجيهاتها، ولابد لهذا القائد أن يكون من أفضل العناصر، وأن يتمتع بسمات القيادة.

إن دراسة الواقع من أهم الضوابط التى تضع العلامات الهادية أمام قادة التخطيط،

وتساعدهم على اتخاذ القرار في ضوء هذه الدراسة. ولقد كانت معظم قرارات النبي ﷺ صادرة عن دراسة واعية للواقع من حوله، ورصد كل المعلومات التى تدعم عملية اتخاذ القرار. فاختياراته السياسية، وضرباته العسكرية الموفقة هي إحدى ثمرات العمل بهذا المبدأ.

فقه التخطيط يقتضي أن يكون المخطط رجلاً كيساً حكيماً، يضع الأشياء في مواضعها، ويعد لكل أمر عدته، ويقدر لكل ظرف ما يناسبه، وقد عدَّ النبي ﷺ الكياسة من فقه النظر إلى المستقبل.

فمن الصفات التي يجب ان تتوفر فيمن ينبري لقضية الاستشراف. ان يكون رجل يتسم بالذكاء والقدرة على الإبداع الذي يمكنه من الوصول إلى الأهداف المنشودة بطرق غير مألوفة، فها هي الخطط المستقبلية بين أيدينا نلمس في آثارها مظاهر الذكاء والنبوغ والإبداع والابتكار لمخططيها، فالمخترعات الحديثة كلها قبل أن تظهر هي من إبداعات العقول الذكية غير العادية، والسياسات المستقبلية العامة للدول المتقدمة تقف ورائها عقول ذكية غير تقليدية ترسم الخطط والأهداف بدقة، وتتعامل مع جميع الفروض والاحتمالات بمقدرة فائقة.

الخاتمة

الاستشراف من المقررات النبوية التي حث وواضب الرسول الكريم ﷺ على ان يمارسها ويعلم اصحابه عليها ويحث المسلمين على اتيانها لما في الاستشراف من الفائدة التي تصلح شأن الامة كون الاستشراف يضع اللبنات الاولى لبناء مستقبل يحقق العدالة المنشودة للامة ويعطي للانسان مبتغاه في السعادة في الدارين .

ان دراسة الاستشراف تمكن الامة من تحديد مواطن الخلل وايجاد الحلول الناجعة لتلك المشاكل التي تعصف بالبشرية .

زيادة الوعي باهمية الاستشراف من خلال اقامة الندوات والمؤتمرات وتعريف الناس بالمنهج الاستشرافي النبوي .

على الامة كافة تطوير هذا العلم الذي لامناص عنه في التخطيط المستقبلي والذي استفادت من تجربته دول اخرى حققت الرفاهية لشعوبها والتركيز على وضع منهاج يسير عليها الناس في معرفة الاستشراف وعرض المنهج النبوي في هذا المجال .

التاكيدعلى اقامة وانشاء المراكز والمعاهد المتخصصة في فن الاستشراف لتعليمه الى الامة جمعاء.

واخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين ....

قائمة المصادر

١. القران الكريم

٢. فقه اللغة وسرُّ العربية لأبي منصور الثعالبي الفصل الثامن الجزء الاول دار العلم للملايين ١٩٨٩ الطبعة الثالثة

٣. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي المؤلف: محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلاالناشر: دار الكتب العلمية – بيروت١٩٩٦

٤. نهاية ابن الأثير، والمصباح المنير، والصحاح البحر الرائق العلمية، ومغني ابن قدامة ط الثالثة . نقلا عن الموسوعة الفقهية الكويتية

٥. تاج العروس من جواهر القاموس المؤلف: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني ،أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي تحقيق مجموعة من المحققين الناشر دار الهداية

٦. مدخل إلى التنمية المتكاملة د. عبد الكريم بكار دار النور الاردن ٢٠٠١.

٧. مجموع الفتاوى مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف تحت إشراف وزارة الشؤن الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد٢٠٠٤

٨. شذرات الذهبفي اخبار من ذهب .ابن عماد الحنبلي .بيروت دار الميسرة ١٩٧٢

٩. الموطأ مالك بن انس .بيروت مؤسسة المعارف ٢٠٠٤

١٠. السنن الالهية في القران الكريم لعماد عبد الكريم خصاونة بحث في مجلة المنارة العدد الثاني المجلد ١٥ لسنة ٢٠٠٩

١١. أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد، دار الجليل، ط١، بيروت، ١٩٩٠م،.

١٢. صحيح البخاري،دار العلم للملايين ط٣ / ١٩٨٢ صحيح مسلم مطبعة الخانجي مصر ١٩٧٨،ط٤.

١٣. محمد بن منظور (ت ٧١١)، لسان العرب، دار صادر، ط١، بيروت لبنان دون تاريخ .

١٤. الخليل بن أحمد الفراهيدي، (ت ١٧٠)، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، دار مكتبة الهلال بيروت،.

١٥. إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح في اللغة، نسخة دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٥٦م،.

١٦. الموسوعة الفقهية الكويتية صادر عن: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية الكويت – الطبعة الثانية، دارالسلاسل – الكويت(١٤٢٧ هـ)